للَّه دَرُّكَ يَا كَعْب

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له وعفا عنه



مُقَدِّمَة

الحمد لله التواب الرحيم، الرؤوف البر الحكيم، فتح باب التوبة لعباده، وبشرهم بفرحه بها، وسهّل طريقها ويسّره للسالكين، فله الحمد والشكر لا نحصي ثناء على ربّ العالمين، على الله توكلي، وبه استعانتي، وعليه اعتمادي، وإليه فراري والتجائي، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، مدحه ربه وأثنى عليه بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. أمرنا بالتوبة وحض عليها فقال: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة**» رواه مسلم، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال سمعت النبي يقول: «**إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» رواه البخاري، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فهذه وقفات مع قصة عبقة، وتأملات لحادث جليل الخطر، ولرواية كثيرة العبر؛ يرويها بسرد رائق جميل مؤثر أحد أدباء صحابة رسول الله ، وأحد فرسانه باللسان والسنان، والأول أشدّ وقعاً وأعظم إيلاماً وأبعد نكاية من الثاني على مستوى العموم، وإن كان الثاني أمضى في البداية، وأحسم في النهاية.

وظِلال هذه القصة يحسّها الكثير، فما دامت النفس حبيسة الجسد، فعدوّها لها بالمرصاد ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧] ولم يقل: من فوقهم، فربهم حافظٌ من سبقت لهم منه الحسنى. وفي سير الأصحاب الأفذاذ الذين تخرّجوا على يد خير المربّين وسيد المرسلين زاداً للأمة في استلهام العبر، وتوسيع مدارك النظر، فأخبارهم حقيقة بتسطير المداد، فهم بعد الأنبياء خير العباد، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وألحقنا بهم على خير حال، غير مفتونين ولا مبدلين.

ومن أولئك النجباء الأفذاذ؛ الشاعر الفارس كعب بن مالك الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، الذي روى خبره وقصة توبة الله عليه وعلى صاحبيه، تلك التوبة التي خلّدها رب العالمين في محكم التنزيل، فأثنى عليهم ووصفهم بالصادقين، فإلى ذلك البستان نقطف من ثماره اليانعة، ونتنفس نسيمه الشذي، ونمتع العين برياضه وخمائله، وسندسه وإستبرقه، ونملأ الرؤوس شمماً والنفوس عزةً من جبال مآثره، وسهول أخلاقه وشيمه.

ومن أراد أن يتبصّر في سورة التوبة فليتأمّل غزوة تبوك، وما أجرى الله تعالى فيها من الأحداث بين أهل الصدق والنصح والإخلاص، وأهل الكذب والغش والنفاق.

ومن باب تسجيل الفضل لأهله، والسبق لأصحابه، فقد سبقني الكثير من الأوائل والأواخر في الوقوف على أطلال تلك القصة الفذة وأحداثها المهيبة البهيّة، وتسجيل ثمرات التأملات، ومما دبّج ورصّع في ذلك؛ ما سُطر في سِفْرَي عَلَمَينِ حافِظَين، وعالِمَينِ عظيمين، من أئمة الدين والهدى، ابن حجر العسقلاني ومحيي الدين النووي، في مصنفيهما الفتح والمنهاج.

كذلك زاد المعاد للعالم الرباني وشيخ الإسلام الثاني شمس الدين ابن القيم، رحمهم الكريم الرحمن، وجزاهم عن الإسلام خيراً، وقد أقللت من النقل عنهم وعن غيرهم، وأحلت حيث نقلت، وإلى مقصود المقال، مع ملاحظة أن التعليق موضوع بين معقوفين.

۞۞۞۞

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال أبو عبد الله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه في كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك: «حَدَّثَنَا يَحْيَى بن بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عبد الرَّحْمَنِ بن عبد اللَّهِ بن كَعْبِ بن مَالِكٍ أَنَّ عبد اللَّهِ بن كَعْبِ بن مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بن مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ».

(كعب بن مالك بن أبي كعب الخزرجي الأنصاري السلمي، يكنى أبا عبد الله، لما قدم على رسول الله المدينة آخى بينه وبين طلحة بن عبيدالله حين آخى بين المهاجرين والأنصار، وهو أحد شعراء رسول الله الذين كانوا ينافحون عنه، شهد العقبة وأحداً والمشاهد كلها إلا غزوتي بدر وتبوك. وفي يوم أحد لبس كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأمَةَ النبي ، وكانت صفراء، ولبس النبي لأمَتَهُ فجرح كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أحد عشر جرحاً.

قال محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان شعراء المسلمين

حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فكان كعب يخوفهم الحرب، وعبد الله يعيرهم بالكفر، وكان حسان يقبل على الأنساب، فبلغني أن دوساً إنما أسلمت فرقا من قول كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أغمدنا السيوفا
تُخَبِّرنا ولو نطقت لقالت قواطعهن دوساً أو ثقيفاً

فلما بلغ دوساً قالوا: خذوا لأنفسكم، لا ينزل بكم ما نزل بثقيف، توفي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سنة خمسين، وقيل: ثلاث وخمسين، وهو ابن سبع وسبعين، وكان قد عمي وذهب بصره في آخر عمره).

«قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا.

كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ» (وتأمل صدقه وبيان حاله وقوته وغناه إبّان تخلفه) «وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا» (أي أوهم السامع أنه يريد جهة غير جهته بدون كذب، كأن يسأل علانية عن طرق الغرب وهو يريد الشرق وهكذا) «حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ» (أي وضّح وجهتهم) «لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ يُرِيدُ الدِّيوَانَ» (روي أنهم كانوا أربعين ألفاً وقيل ثلاثين) «قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ. وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ».

(وفي سيرة ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ في ذكر غزوة تبوك، وكانت في رجب سنة تسع: ...فقال رسول الله ذات يوم وهو في جهازه ذلك للجد بن قيس أحد بني سلمة: يا جدّ، هل لك العام في

جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله وقال: قد أذنت لك. ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] أي: إن كان إنما خشي الفتنة من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة أكبر، بتخلفه عن رسول الله، والرغبة بنفسه عن نفسه، وإن جهنم لمن ورائه.

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكّاً في الحق، وإرجافاً برسول الله ﷺ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١-٨٢].

وبلغ رسول الله ؛ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، وكان بيته عند جاسوم، يثبّطون الناس عن

رسول الله في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبي طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة فاقتحم الضحاك بن خلفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا. فقال الضحاك في ذلك:

كادت وبيت الله نار محمد يشيط بها الضحاك وابن أبيرق
وظلت وقد طبقت كبس سويلم أنوء على رجلي كسيراً ومرفقي
سلام عليكم لا أعود لمثلها أخاف ومن تشمل به النار يحرق

ثم إن رسول الله جدّ في سفره، وأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها. وأنفق عثمان ابن عفان في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله : اللّهم أرض عن عثمان فإني عنه راض.

ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله، وهم البكاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، فاستحملوا رسول الله، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه.

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. فلقي ابن يامين بن عمر النضري أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان، فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه؛ فأعطاهما ناضحاً له فارتحلاه، وزودهما شيئاً من تمر، فخرجا مع رسول الله.

وفي الإصابة: في ذكر البكائين في غزوة تبوك: فأما عُلْبَةُ بن زيد فخرج من الليل فصلى وبكى، وقال: اللّهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغّبت فيه ولم تجعل عندي ما أتقوّى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها، في جسد أو عرض. وقال: فأمر رسول الله منادياً فنادى: «**أين المتصدق بعرضه البارحة؟**» فقام علبة. فقال: «**قد قُبِلَت صدقتك**». (فلله الحمد على عظيم فضله وكريم إنعامه).

ثم استتب برسول الله سفره، وأجمع السير. وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله، حتى تخلفوا عنه عن غير شك ولا ارتياب؛ منهم كعب بن مالك بن أبي كعب، أخو بني سلمة، ومرارة بن الربيع، أخو بني عمرو بن عوف،

وهلال بن أمية، أخو بني واقف، وأبو خيثمة، أخو بني سالم بن عوف، وكانوا نفر صدق، لا يتهمون في إسلامهم.

فلما خرج رسول الله ضرب عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله ابن أبيّ معه على حدة عسكره أسفل منه نحو ذباب، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين. فلما سار رسول الله تخلّف عنه عبد الله بن أبيّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب.

وخلف رسول الله علي بن أبي طالب رضوان الله عليه في أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له، وتخففاً منه، فلما قال ذلك المنافقون: أخذ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني، وتخففت مني؛ فقال: «**كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنه لا نبي بعدي**» (متفق على أصله)، فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله على سفره.

ثـم إن أبـا خيثمـة رجـع بعـد أن سـار رسـول الله أيامـاً إلى أهله في يـوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهـما في حائطه، قد رشّت كل واحدة منهما عريشها، وبرّدت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله في الضّح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف!

ثـم قـال والله لا أدخـل عـريش واحـدة مـنكما حتـى ألـحق برسـول الله، فهيئا لي زاداً، ففعلتـا. ثـم قـدم ناضـحه فارتحلـه ثـم خـرج في طلـب رسول الله، حتى أدركه حين نـزل بتبوك، وقـد كـان أدرك أبـا خيثمـة عمـير بـن وهـب الجمحـي في الطريـق، يطلـب رسـول الله فترافقـا، حتـى إذا دنـوا مـن تبـوك، قـال أبـو خيثمة لعمير بـن وهـب: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تخلّف عني حتـى آتي رسـول الله ففعـل، حتـى إذا دنـا مـن رسـول الله وهـو نـازل بتبـوك، قـال النـاس: هـذا راكـب عـلى الطريـق مقبـل، فقـال رسـول الله : «**كـن أبـا خيثمـة**»؛ فقـالوا: يـا رسـول الله، هـو والله أبـو خيثمـة، فلـما أنـاخ أقبـل فـسلم عـلى رسـول الله، فقـال لـه

رسول الله : «**أولى لك يا أبا خيثمة**». ثم أخبر رسول الله الخبر. فقال له رسول الله خيراً، ودعا له بخير.

وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً:

لما رأيت الناس في الدين نافقوا	أتيت التي كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد	فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرما
تركت خضيباً في العريش وصرمة	صفايا كراماً بسرها قد تحمَّما
وكنت إذا شك المنافق أسمحت	إلى الدين نفسي شطره حيث يمما

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن الفوائد؛ أنَّ الإمامَ إذا استنفر الجيشَ، لزمهم النفير، ولم يجز لأحدٍ التخلّف إلّا بإذنه، ولا يُشترط في وجوب النفير تعيين كلِّ واحدٍ منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش؛ لزم كل واحد منهم الخروج معه، وهذا أحدُ المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهادُ فرضَ عينٍ. والثاني: إذا حضر العدو البلد. والثالث: إذا حضر بين الصفين. وقال: ومن الفوائد؛ وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد، وهي الصواب الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيق الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن وقرينه، بل جاء مقدماً على الجهاد بالنفس في كل موضع إلا

موضعاً واحداً، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكد من الجهاد بالنفس، ولا ريب أنَّه أحد الجهادين، كما قال النبيُّ: «**من جهّز غازياً فقد غزا**» رواه البخاري، فيجب على القادرِ عليه، كما يجب على القادرِ بالبدن، ولا يتمُّ الجهادُ إلا ببذله، ولا ينتصرُ إلا بالعَدد والعُدد، فإنْ لم يقدر أنْ يكثر العَدد، وجب عليه أنْ يمد بالمال والعُدة، وإذا وجب الحج بالمال على العاجز بالبدن، فوجوب الجهاد بالمال أولى وأحرى).

قال كعب: «وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ» (وفي هذا بيان خطر التسويف، وكما قيل: اتق سوف وحتى فهما من جند إبليس) «وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ» (وفيه التحسّر على فوات الخير حتى

لا تفوّت النفس أمثاله) «فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ» (وهذا من الاحتجاج بالقدر على المصائب وليس الذنوب) «فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ» (وفي ذلك اعتبار الطريق بصلاح سُلّاكه أو فسادهم، وحُزن نفس المؤمن إن حُبِست مع أهل السوء، وأُنْسُهَا بأهل الخير.

ثم حدثت أمور عجيبة قدّرها الله تعالى في تلك الغزوة الفريدة، وفيها من دلائل النبوة كثير، وفي سيرة ابن هشام: «...وقد كان رسول الله حين مر بالحِجْرِ نزلها، واستقى الناس من بئرها (والحجر هي ديار قوم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي واقعة بجوار العُلا حاليّاً) فلما راحوا قال رسول الله : لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنّ أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له. ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله، إلا أن رجلين خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعير له، فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه

(أي صرعته الجنّ) وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيئ. (أي جبلي أجا وسلمى بحائل حالياً، وبينها وبين طريق تبوك مئات الكيلوات**!** وفيها شؤم مخالفة أمره ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فأُخبر بذلك رسولُ الله فقال: «**ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه؟!**» ثم دعا رسول الله للذي أصيب على مذهبه فشفي، وأما الآخر الذي وقع بجبلي طيئ، فإن طيئاً أهدته لرسول الله حين قدم المدينة.

ولما مرّ رسول الله بالحجر سجّى ثوبه على وجهه، واستحث راحلته، ثم قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين**» (متفق عليه). (قلت: واليوم تنظّم لها الزيارات السياحية، والمشتكى

إلى الله).

فلما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله، فدعا رسول الله فأرسل الله سبحانه سحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

وسُئل محمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم، والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفي عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك، ثم قال محمود: لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحِجْر ما كان، ودعا رسول الله حين دعا، فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك! هل بعد هذا شيء؟! قال: سحابة مارة! ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

ثم إن رسول الله سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلّت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله رجل من أصحابه، يقال له عمارة بن حزم، وكان عقبياً بدرياً، وكان في

رَحْلِهِ زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقاً، فقال زيد بن اللصيت، وهو في رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله وعمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في الوادي، في شعب كذا وكذا، وقد حَبَسَتْهَا شجرة بزمامها، فانطلِقوا حتى تأتوني بها فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله آنفاً، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن اللصيت، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي. فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إليّ عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، أخرج أي عدو الله من رحلي، فلا تصحبني. (فرضي الله عن أهل الولاء والبراء) وقيل: إن زيداً تاب من ذلك.

ثم مضى رسول الله سائراً، فجعل يتخلّف عنه الرجل،

فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فَسَيُلْحِقُهُ الله تعالى بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره؛ فقال: فإن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وتلوّم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره.

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله: كن أبا ذر. فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر. فقال رسول الله: «**رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**». ولما كان أبو ذر في الرّبذة (ولا زالت آثارها جنوب شرق الحناكية، على الشرق من المدينة النبوية بمئتي كيلٍ تقريباً) حضره الموت ولم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما؛ أن اغسلاني وكفناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب

رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه فلما مات فَعَلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق. وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمّار، فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه. قال: فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله، تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك. ثمّ نزل هو أصحابه فواروه، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه، وما قال له رسول الله في مسيره إلى تبوك.

وفي الزاد: وفي قوله ﷺ: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**» رواه مسلم، فهذه المعية هي بقلوبهم وهممهم، وكانوا معه بأرواحهم، وبدار الهجرة بأشباحهم، وهذا من الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع، وهي: القلب، واللسان، والمال، والبدن، وفي الحديث: «**جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم**» أخرجه أحمد وأبو داود بسند صحيح.

وهلك رهط من المنافقين باستهزائهم؛ فقال بعضهم

لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً! والله لكأنّا بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين (وتأمّل أشباههم في ذا الزمان) فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله لعمار بن ياسر: «**أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا**». فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على ناقته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] وقال مخشن بن حُمَيِّر: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي، وكان الذي عفى عنه في هذه الآية مخشن بن حمير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر) قال كعب

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟» (وفيه اهتمام رسول الله بأصحابه، وتفقده أحوالهم، فلم ينس كعباً مع زحمة الأُلوف من أصحابه) «فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ» (وهذه زلّة، فالواجب إحسان الظنّ وتلمّس العذر، والعافية لا يعدلها شيء، خاصة فيما يتعلق بحقوق العباد فمبناها على المشاحّة، وإن كان بعض أهل العلم يسوّغون ذلك لمن صدق الله في قوله، وغضباً لدينه، وغلب على ظنه حقيقة من اتهم، مع بعض قرينة، ولكن من له بالسلامة والعافية؟!) «فَقَالَ مُعَاذُ بن جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ! وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا» (وهذا من بركة علمه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وفي مصنف ابن أبي شيبة عن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله قال: «**من ذب عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار**» وعند الترمذي: «**رد الله عن وجهه النار**» وقال: «**والمسلم أخو المسلم...ولا يخذله**» رواه مسلم، ولم يُحْسِن من نقل خبر كلام ابن عم كعب فيه لأن هذا من النميمة) «فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ » (لعلّه اكتفى بذبّ معاذ عن

عرض أخيه المسلم، وهو لم يسمع حجة كعب بعد).

«قَالَ كَعْبُ بن مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا؛ حَضَرَنِي هَمِّي»، (وذَهَبَتْ عنه لذة القعود والراحة، وحضره الحقّ واليقين، واشتعلت جذوة الإيمان بندم التفريط وحسرة التهاون) «وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا؛ زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ» (وهذا من تثبيت الله تعالى له، فأعظم الخذلان؛ هو الخذلان عند ورود الطاعات، وهذا التثبيت والتوفيق من الله، ببركة أعماله الصالحة الماضية، وصدق نيته مع ربّه، ومن ذكر الله في الرخاء ذكره الله في الشدة.

قال ابن إسحاق: ثم أقبل رسول الله حتى نزل بذي أوان، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلي لنا فيه؛ فقال: «**إني على جناح**

سفر»، وحال شغل، أو كما قال، «**ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه**». فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله مالك ابن الدخشم، أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي، أخا بني العجلان، فقال: «**انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه**» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل إلى أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

قال ابن القيم في الزاد: ومن الفوائد؛ تحريق أمكنة المعصية التي يُعصى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسولُ الله مسجد الضرار، وأمر بهدمه وهو مسجد يُصلَّى فيه، ويُذكر اسمُ الله فيه، لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين، ومأوى

للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه، فوجب على الإمام تعطيله، إمَّا بهدمٍ وتحريق، وإمَّا بتغيير صورته وإخراجه عمَّا وُضِع له. وإذا كان هذا شأنَ مسجد الضِّرار فمشاهد الشِّرك التي يدعو سدنتُها إلى اتخاذِ من فيها أنداداً من دون الله أحقُّ بالهدمِ وأوجب، وكذا محال المعاصي والفسوق، كالحانات وبيوت الخمَّارين وأرباب المنكرات).

قال كعب: «وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ» (وهذه سُنّة مهجورة عند الكثير) «ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ، جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ» (وكفى بهذه التسمية مذمّة، لذا تبرّأ منها كعب كما يأتي، فكثير منهم: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧] «فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ» (قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ

وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٤-٩٦].

«وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا» (قال الحافظ: ذكر الواقدي؛ أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضاً اثنين وثمانين رجلاً من بني غفار وغيرهم، وأن عبد الله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عدداً كثيراً) «فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ» (وهذا منهجه وسَنَنُه، وهذا الفعل تطبيق لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أن أشق بطونهم**» رواه مسلم) «فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ» (فقد كان وجهه يُظهر ما في نفسه الشريفه، فلا يبدي خلاف ما يُخفي، فتبسم لحسن ظنه بكعب، وأظهر الغضب لِمُنْكَرِهِ، وهذه نفيسة عدلية) «ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ» (وهذا من تواضع

المصطفى ، فلا حُجّاب ولا حشم، ولا أبواب ولا سُرُر، بل في المسجد على الأرض، وهو خيرة خلق الله تعالى) «فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟» (وفي هذا السؤال قبل العتب. كما قيل:

تأنّ ولا تعجل بلومك صاحباً لعلّ له عذرٌ وأنت تلومُ

وهذا من كمال خلقه عليه الصلاة والتسليم والبركة).

«فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ» (فالعبرة بحقائق الآخرة الباقية، لا أحلام الدنيا الفانية، وأعراضها الزائلة، وهذا في غاية الفقه والتوفيق) «وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ» (وتأمل صدقه ويقينه وقوته على نفسه في الحق، فلله دره من صاحبٍ رَضيّ، وصادقٍ مَرْضِيّ، لهذا فقد استحق مدح الله

تعالى له بأن أمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين في ختام ذكر خبره وصاحبيه في سورة التوبة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وهي وإن كانت ليست خاصة بهم؛ إلا أنهم يدخلون فيها دخولاً أولياً لصدعهم بالصدق حين توارى أهل النفاق تحت حندس الكذب، وظلام الزور.

وفضائل وأخبار وثمار الصدق مع الله تعالى كثيرة، منها ما رواه النسائي وصححه الألباني عن شداد بن الهاد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي بعض أصحابه، فلما كانت غزوةٌ غَنِمَ النبي سبياً، فقسم وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي ، فأخذه فجاء به إلى النبي فقال: ما هذا؟ قال: «**قسمته لك**» قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا، وأشار إلى حلقه، بسهم فأموت فأدخل الجنة فقال: «**إن تصدق الله يصدقك**» فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتِيَ به النبي يُحمل قد أصابه سهم

حيث أشار، فقال النبي: «**أَهُوَ هُوَ؟**» قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه**» ثم كفنه النبي في جبة النبي ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللّٰهم هذا عبدك، خرج مهاجراً في سبيلك، فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك**».

وهذا سعد بن خيثمة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما ندب رسول الله الناس إلى غزوة بدر قال له أبوه خيثمة: إنه لا بد لأحدنا أن يقيم فآثرني بالخروج وأقم مع نسائك، فأبى سعد وقال: لو كان غير الجنة آثرتك به، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا، فاستهما فخرج سهم سعد فخرج فقتل ببدر. وهذا سالم مولى أبي حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما كان يوم اليمامة وانكشف صفّ المسلمين فحفر سالم لنفسه حفرة، وتحنط بحنوطه، وأمسك براية المهاجرين، فقالوا له:يا سالم إنا نخشى أن نؤتى من قبلك فقال: بئس حامل القرآن إذا أنا ـ وتأمل نفاسة هذا القول العظيم، وعمق دلالاته، وثقل مسؤولية حملة القرآن، وصدق وفائه به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فأخذ اللواء بيمينه فقطعت، فرفعه بشماله فقطعت، فاعتنق اللواء وجعل يقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ

قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى أن قتل، جزاه الله جزاء الشاكرين. وهكذا استشهد حامل القرآن في الميدان، ومن أولى بهذا الفضل منه؟! وقد قال فيه رسول الله: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله**» أخرجه البزار، ووثق رجاله الحافظ ابن حجر.

وعن ابن المسيِّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: أقبل صُهيب مهاجرًا، واتبعه نفرٌ، فنزل عن راحلته، ونثل كِنانته، وقال: لقد علمتم أني من أرماكم، وايمُ الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بكل سهم معي، ثم أضربُكم بسيفي، فإن شئتُم دللتُكم على مالي، وخلَّيتُم سبيلي؟ قالوا: نفعل، فلما قدم على النبي قال: «**ربح البيعُ أبا يحيى**» ونزلت: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وأسند الواقدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: رأيتُ عمارًا يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين، أَمِن الجنة تَفِرُّون، أنا عمارُ بن ياسر، هلمُّوا إليَّ! وأنا

أنظر إلى أذنه قد قطعت، فهي تَذَبْذَبُ وهو يُقاتِلُ أشد القتال.

ومن المقولات الخالدة لسيف الله خالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ما من ليلة تُهْدَى إليَّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبٌّ؛ أحبّ إليَّ من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد في سريَّةٍ أُصَبِّحُ فيها العَدُوَّ.

وعن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه قال: بعثني النبي يوم أُحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «**إنْ رأيتَه، فأقْرِه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تجدك؟**» فطفتُ بين القتلى، فأصبته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة فأخبرته، فقال: على رسول الله السلام وعليك، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله وفيكم شفْر يطرف، قال: وفاضت نفسه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وعن جُبير بن نُفَير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود بدمشق وهو يحدثنا وهو على تابوت ما به عنه فضل، فقال له رجل: لو قعدت العام عن الغزو؟ قال: أبت البَحوث ـ يعني

سـورة التوبـة ــ قـال الله تبـارك وتعـالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] قال أبو عثمان: بحثت المنافقين.

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنَّ أبا طلحة قرأ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فقال: استنفرنا الله، وأمرنا شيوخنا وشبابنا، جهزوني. فقال بنوه: يرحمُك الله، إنك قد غزوت على عهد رسول الله، وأبي بكر، وعمر، ونحن نغزو عنك الآن. قال: فغزا البحر، فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونَه فيها إلاَّ بعد سبعة أيام، فلم يتغير.

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: بعث النبي أقوامًا من بني سليم إلى بني عامر في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم، فإن أَمّنوني حتى أبلّغهم عن رسول الله وإلا كنتم مني قريبًا، فتقدم فأَمَّنوه، فبينما يحدثهم عن النبي إذ أومؤوا إلى رجل منهم؛ فطعنه فأنفذه، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة. ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلاً أعرج صعد الجبل، فأخبر جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ النبي أنهم لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم.

وعن ثابت البناني عن ابن أبي ليلى، أن ابن أم مكتوم قال: أي ربِّ، أنزل عذري. فأنزلت: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] فكان بعدُ يغزو ويقولُ: ادفعوا إليَّ اللواءَ، فإني أعمى لا أستطيع أن أفِرَّ، وأقيموني بين الصفين.

وروى ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ عن جعفر بن عبد الله بن أسلم قال: لما كان يوم اليمامة واصطف الناس كان أول من جُرح أبو عَقِيل عبد الرحمن بن ثعلبه؛ رُمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤادِه في غير مَقتل، فأخرج السهم ووهَن له شقَّه الأيسر في أول النهار، وجُرَّ إلى الرحل. فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم، وأبو عقيل واهن من جرحه، سمع معن بن عدي يصيح يا للأنصار! الله الله والكرّة على عدوكم. قال عبد الله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد؟ ما فيك قتال. قال: فد نوَّه المنادي باسمي قال ابن عمر: فقلت له: إنما يقول: يا للأنصار! ولا يعني الجرحى، قال أبو عقيل: أنا من الأنصار، وأنا أجيبه ولو حَبْوًا. قال ابن عمر: فتحزَّم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى، ثم جعل ينادي: يا للأنصار، كرَةً كيوم حُنين فاجتمعوا رحمكم الله جميعاً

تقدّموا فالمسلمون دريئة دون عدوهم، حتى أقحموا عدوّهم الحديقة، فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم. قال ابن عمر: فنظرت إلى أبي عقيل وقد قُطعت يده المجروحة من المنكب فوقعتْ إلى الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحًا كلها قد خلصت إلى مقتل، وقُتل عدو الله مسيلمة. قال ابن عمر فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق فقلت: يا أبا عقيل! قال: لبيك، بلسان ملتاث، لمن الدَبرَة؟ قلت: أبشر قد قتل عدو الله، فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله. ومات يرحمه الله، قال ابن عمر: فأخبرت عمر، بعد أن قدمت، خبره كله، فقال: رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ما زال يسعى للشهادة ويطلبها، وإن كان ــ ما علمت ـ من خيار أصحاب نبينا وقديم إسلامهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وعن محمد بن سعد قال: أتى واثلة بن الأسقع رسول الله فصلى معه الصبح. وكان رسول الله إذا صلى وانصرف تصفح أصحابه، فلما دنا من واثلة قال: من أنت؟ فأخبره فقال: ما جاء بك؟ قال: جئت أبايع. فقال رسول الله: فيما أحببتَ وكرهتَ؟ قال: نعم. قال: فيما أطقت؟ قال: نعم. فأسلم وبايعه. وكان رسول الله يتجهز يومئذ إلى تبوك فخرج

واثلـة إلى أهلـه فلقـي أبـاه الأسـقع فلـما رأى حالـه، قـال: قـد فعلتها؟ قال: نعم. قال أبوه: والله لا أكلمك أبداً. فأتى عمه فسلم عليه، فقال: قد فعلتها؟ قال: نعم. فلامه أيسر من ملامة أبيه وقال: لم يكن ينبغي لك أن تسبقنا بأمر. فسمعت أخت واثلة كلامه، فخرجت إليه وسلمت عليه بتحية الإسلام. فقال واثلة: أنىَّ لكِ هذا يا أخيّة؟ قالت: سمعت كلامك وكلام عمك فأسلمت. فقال: جهّزي أخاك جهازَ غَازٍ؛ فإن رسول الله على جناح سفر. فجهزته فلحق برسول الله قد تحمَّل إلى تبوك وبقي غُبَّراتٌ من الناس وهم على الشخوص، فجعل ينادي بسوق بني قينقاع: من يحملني وله سهمي؟ قال: وكنت رجلاً لا رِحلة بي. قال: فدعاني كعب بن عُجْرة فقال: أنا أحملك عقبة بالليل وعقبة بالنهار، ويدك أسوة يدي وسهمك لي. قال واثلة: نعم. قال واثلة: جزاه الله خيرًا؛ لقد كان يحملني ويزيدني، وآكل معه ويرفع لي، حتى إذا بعث رسول الله خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل خرج كعب في جيش خالد وخرجت معه فأصبنا فيئًا كثيرًا فقسمه خالد بيننا فأصابني ست قلائص، فأقبلت أسوقها حتى

جئت بها خيمة كعب بن عجرة فقلت: اخرج رحمك الله فانظر إلى قلائصك فاقبضها. فخرج وهو يبتسم ويقول: بارك الله لك فيها، ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئًا. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعن عبد الله بن قيس أبي أميَّة الغفاري قال: كنا في غزاة لنا، فحضر عدوهم فصيح في الناس فهم يثوبون إلى مصافّهم، إذا رجل أمامي، رأس فرسي عند عجز فرسه، وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفس ألم أشهد مشهد كذا وكذا، فقلتِ لي: أهلك وعيالك، فأطعتُك ورجعتُ؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنَّك اليوم على الله، أخذك أو تركك. فقلت: لأرمقنه اليوم. فرمقته فحمل الناسُ على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في حماتهم، ثم إن الناس حملوا فكانوا في أوائلهم، ثم حمل العدو وانكشف الناس فكان في حماتهم. قال: فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأيته صريعًا. فعددتُ به وبدابته ستين، أو أكثر من ستين طعنة.

وعن ابن المبارك أن رجلاً قال لصلة: يا أبا الصهباء! رأيت أني أُعطيتُ شهدة، وأُعطيتَ شهدتين، فقال تُستشهد

وأنا وابني، فلما كان يوم يزيد بن زياد؛ لقيتهم التركُ بسجستان فانهزموا. وقال صلة: يا بُني ارجع إلى أمك. قال: يا أبت، تريدُ الخير لنفسك، وتأمرني بالرجوع! قال فتقدم، فتقدم، فقاتل حتى أصيب فرمى صلة عن جسده - وكان راميًا - حتى تفرقوا عنه فأقبل حتى قام عليه، فدعا له، ثم قاتل حتى قتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
وقال حماد بن سلمة: أخبرنا ثابت أن صِلَةَ كان في الغزو، ومعه ابنه، فقال: أي بُنَي! تقدَّمْ، فقاتل حتى أَحْتَسبك، فحمل، فقاتل، حتى قُتِلَ، ثم تقدَّم صِلَةُ، فقُتل، فاجتمع النساءُ عند امرأته معاذة، فقالت: مرحباً إن كُنْتُنَّ جئتُنَّ لتُهنِّئنني، وإن كُنتُنَّ جِئتُنَّ لغير ذلك، فارجعْنَ.

وعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قالت: لما توجه النبيُّ من مكة حمل أبو بكر معه جميع ماله، خمسة آلاف، أو ستة آلاف، فأتاني جدِّي أبو قُحافة وقد عمِي، فقال: إن هذا قد فجعكم بماله ونفسه. فقلتُ: كلا، قد ترك لنا خيرًا كثيرًا. فعمِدْتُ إلى أحجارٍ، فجعَلْتُهنَّ في كوَّة البيت، وغطيتُ عليها بثوب، ثم أخذتُ بيده، ووضعتُها على الثوب، فقلتُ: هذا تركه لنا. فقال: أَمَا إذْ ترك لكم هذا فنعم. (وانظر: موسوعة

البحوث والمقالات العلمية. جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود).

وفي المسند وأصله في مسلم عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ جُلَيْبِيبًا كَانَ امْرَأً يَدْخُلُ عَلَى النِّسَاءِ، وَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهِنَّ ـ قلت: لعل ذلك قبل آية الحجاب ـ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ جُلَيْبِيبٌ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ دَخَلَ عَلَيْكُمْ لَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنَّ. قَالَ: وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَيِّمٌ لَمْ يُزَوِّجْهَا حَتَّى يَعْلَمَ هَلْ لِلنَّبِيِّ فِيهَا حَاجَةٌ أَمْ لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ. فَقَالَ: نِعِمَّ وَكَرَامَةٌ يَا رَسُولَ اللهِ وَنُعْمَ عَيْنِي. قَالَ: إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي. قَالَ: فَلِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لِجُلَيْبِيبٍ. قَالَ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُشَاوِرُ أُمَّهَا. فَأَتَى أُمَّهَا فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ يَخْطُبُ ابْنَتَكِ. فَقَالَتْ: نِعِمَّ وَنُعْمَةُ عَيْنِي. فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ إِنَّمَا يَخْطُبُهَا لِجُلَيْبِيبٍ. فَقَالَتْ: أَجُلَيْبِيبٌ إنية؟ أَجُلَيْبِيبٌ إنية؟ أَجُلَيْبِيبٌ إنية؟ ـ أي مستنكرة ذلك ـ لَا. لَعَمْرُ اللهِ لَا نُزَوَّجُهُ. فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ لِيَأْتِيَ رَسُولَ اللهِ فَيُخْبِرَهُ بِمَا قَالَتْ أُمُّهَا قَالَتِ الْجَارِيَةُ: مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمْ؟ فَأَخْبَرَتْهَا أُمُّهَا فَقَالَتْ: أَتَرُدُّونَ عَلَى

رَسُولِ اللهِ أَمْرَهُ؟ ادْفَعُونِي؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُضَيِّعْنِي. فَانْطَلَقَ أَبُوهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: شَأْنَكَ بِهَا. فَزَوَّجَهَا جُلَيْبِيبًا قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ فِي غَزْوَةٍ لَهُ، قَالَ: فَلَمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَفْقِدُ فُلَانًا وَنَفْقِدُ فُلَانًا. قَالَ: انْظُرُوا هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟ ـ وتأمّل تأخيره ذلك القول، حتى لا يرزأ غيره من الشهداء ـ قَالُوا: لَا. قَالَ: لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا. قَالَ: فَاطْلُبُوهُ فِي الْقَتْلَى. قَال: فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ، قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! هَا هُوَ ذَا إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ. فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ، فَقَامَ عَلَيْهِ فَقَالَ: قَتَلَ سَبْعَةً وَقَتَلُوهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ. مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. ـ قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه: المبالغة في اتحاد طريقتهما، واتفاقهما في طاعة الله تعالى ـ ثُمَّ وَضَعَهُ رَسُولُ اللهِ عَلَى سَاعِدَيْهِ، وَحُفِرَ لَهُ مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدَا رَسُولِ اللهِ، ثُمَّ وَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ، وَلَمْ يُذْكَرْ أَنَّهُ غَسَّلَهُ. قَالَ ثَابِتٌ: فَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيِّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا. وَحَدَّثَ إِسْحَاقُ بن عبد اللهِ بن أَبِي طَلْحَةَ ثَابِتًا قَالَ: هَلْ تَعْلَمْ مَا دَعَا لَهَا رَسُولُ اللهِ ؟ قَالَ: «**اللهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا كَدًّا**». قَالَ: فَمَا كَانَ

فِي الْأَنْصَارِ أَيِّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا.

وهـذا عبـد اللهِ ذُو البِجَـادَيْنِ، وكـان يتيماً لا مـال لـه. قـد مات أبوه فلم يورثه شيئاً. وكان عمّه مليّاً، فأخذه وكفله حتّى أيسر، فكانت له إبل وغنم ورقيق. فلمّا قدم رسول الله المدينة، تاقت نفسه للإسلام، وعمه يحول بينه وبين الهجرة، ولا يقدر عليها من عمّه، حتّى مضت السنون والمشاهد كلّها، حتى انصرف رسول الله من فتح مكّة راجعاً إلى المدينة. فقال عبد اللهِ لعمّه: يا عمّ! قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمّداً! فائذن لي في الإسلام. فقال عمّه: والله لئن اتّبعت مُحَمَّدَاً، لا أترك بيدك شيئاً كنت أعطيتكه إلاّ نزعته منك حتّي ثوبيك. فقال عبد الله وكان اسمه حينها عبد العُزَّى: وأنا والله متّبع محمّداً ومسلم، وتارك عبادة الحجر والوثن. وهذا ما بيدي فخذه. لسان حاله:

إلى كم حبسها تشكو المضيقا أثرها ربما وجدت طريقاً

فأخذ كلّ ما أعطاه، حتّي جرّده من إزاره. فأتي عبد الله أُمّه فقطعت بِجَادَاً لها باثنين ـ والبجاد كساء فيه خطوط ـ فائتزر بواحد، وارتدي بالآخر. ثمّ أقبل إلى المدينة، فاضطجع في

المسجد إلى السحر. ثمّ صلّى رسول الله الصبح. وكان رسول الله يتصفّح الناس إذا انصرف من الصبح، فنظر إليه فأنكره. فقال: «**من أنت؟**» فانتسب له، وقال: اسمي عبد العزّى. فقال رسول الله: «**أنت عبد اللهِ ذُو البِجَادَيْن**». ثمّ قال: «**انزل منّي قريباً**». فجعله من أضيافه، وكان يعلّمه القرآن حتّى قرأ قرآناً كثيراً. وكان ذُو البِجَادَيْن رجلاً صيّتاً، فكان يقوم في المسجد، فيرفع صوته بالقراءة. فقال عمر: يا رسول الله، ألا تسمع إلى هذا الأعرابيّ يرفع صوته بالقرآن حتّى قد منع الناس القراءة؟! فقال النبيّ: «**دعه يا عمر! فإنّه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله**» (وفي هذا مراعاة المهاجرين والداخلين توّاً في الإسلام وتألّفهم) ولمّا كان الناس يتجهّزون إلى تبوك، جاء إلى النبيّ وقال: يا رسول الله! ادع الله لي بالشهادة. فقال رسول الله: «**أبلغني لِحاء سمُرَة**» ــ أي: قشر شجرة سمرة ــ فأبلغه لحاءَ سَمُرة. فربطها رسول الله على عضده، وقال: «**اللَهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ دَمَهُ على الكُفَّارِ!**» فقال: يا رسول الله! ليس أردت هذا. قال النبيّ: «**يا ذا البجادين! إنّك إذا خرجت غازياً في سبيل الله، فأخذتك الحمّى، فقتلتك، فأنت شهيد، وَوَقَصَتْك دابّتك فأنت**

شهيد، لا تُبالِ بأيّةٍ كان» ولمّا نزلوا تبوكاً؛ وأقاموا بها أيّاماً، توفي عبد الله ذو البجادين. فكان بَلاَلُ بن الحَارِثُ يقول: حضرتُ رسول‌الله، ومع بَلاَلُ المؤذِّن شُعْلَةٌ من نار عند القبر واقفاً بها. وإذا رسول‌الله في القبر، وإذا أبو بكر، وعمر يدلِّيانه إلى النبيّ وهو يقول: «**أدنيا إليّ أخاكما**» ولمّا هيّأه رسول الله لشقّه، قال: «**اللّهمّ إنّي قد أمسيتُ عنه راضياً فارض عنه**».

ألا بلّغ الله الحمى من يريده وبلّغ أطراف الحمى من يريدها

فقال عبد اللهِ بن مَسْعُود: يا ليتني كنت صاحب اللحد. رواه البزار.

وعودة إلى حديث كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قال: «فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ» (وفيه إشارة إلى أن غيره قد كذب، وليس كلّهم فمرارة وهلال قد صدقا كذلك) «فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ» (كما قال جل وعزّ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ ﴾ [المائدة: ٩٩] ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام:٥٧]) «فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ» (من بني عمومته؛ ومن توفيق الله له تركه وصيتهم له وعتابهم إياه،

وفيه القوّة في الحق وأن لا يكون المؤمن إمعة، وأن ليس كل مشير موفق، قال الحافظ: قال كعب: ما كنت لأجمع أمرين؛ أتخلف عن رسول الله وأكذبه. فقالوا: إنك شاعر جريء، فقال: أما على الكذب فلا) «فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ! قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ لَكَ». (ولعظم هذه الرغيبة التي زُيّنت بالتشنّف للمغفرة بمجرد استغفار رسول الله ؛ فقد ذكرها كعب بعد سنين طويلة من تلك الحادثة) «فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي» (وفيه أن المؤمن في حال اضطرار دائم إلى حفظ الله له.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

فما ثَمّ إلا حفظ الله أو الهلكة).

«ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ. قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا مُرَارَةُ بن الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلَالُ بن أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ،

فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي» (وفيه الائتساء بأهل الصلاح الذين نالهم مثل ما نال المُصاب) «وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ». (لعدم العذر المانع من عقوبة الدنيا، أما المُعذِّرون فقبل منهم أعذارهم ظاهراً، ووكل سرائرهم إلى الله، وهذا من حسن السياسة، وجَوْدَةِ الحُكم) «فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا» (وفيه استجابة المؤمنين لأمر نبي الله ، وكما في حال ابن عمه أبي قتادة معه) «حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ» (فإذا تنكّرت للإنسان نفسه التي بين جنبيه فكيف بما انفصل عنه، وفيه شؤم الذنب، ووحشة المعصية).

«فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ» (وظاهره أنهما لم يكونا يصليان في المسجد، وإذ لم ينههما دل ذلك على سقوط الجماعة عنهما وعن من جرى عليه مثل حالهما) «وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ» (قال الحافظ في

الفتح: وفي رواية: «وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هي بالحيطان التي نعرف، وتنكر لنا الناس حتى ما هم الذين نعرف» وهذا يجده الحزين والمهموم في كل شيء حتى قد يجده في نفسه، وفي رواية: «وما من شيء أهم إلي من أن أموت، فلا يصلي علي رسول الله، أو يموت فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلى علي» وفي رواية: «حتى وجلوا أشد الوجل وصاروا مثل الرهبان») ذقال كعب: «وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ، فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي» (وفيه كمال شفقته وتمام رحمته كما قال فيه ربه جلّ وعزّ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وهذه نفيسة عزيزة لا يُحسّها كلّ أحد) «حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ؛ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ! أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ: هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد امتثلوا قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فلا يقدمون دون ذلك شيئاً مهما عظُم) «فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ».

«قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بن مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ» (وفيه أن للكفار عيوناً وجواسيس، فلم يخف عليهم مثل هذا الأمر الذي لا يؤبه له عادة، وفيه خطرهم وحرصهم على إغواء المؤمنين، فهذا ابنُ عَمِّهِ ملك غسان جبلة بن الأيهم باسمه يدعوا كعباً إليه، نعوذ بالله من مضلات الفتن، وفيه ثبات الصحابة رضوان الله عليهم في

الملمات، فكما ثبت كعبٌ في فتنة الضرّاء وأليم الهجر، فقد ثبت في فتنة الإغراء والحظّ الزائل) قال كعب: «فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ» (وفيه فقه الصحابة، وعميق علمهم، كما نعتهم ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ) «فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا» (وفي الفتح: أن الكتاب كتب في سرقة من حرير، وذكر قول كعب: إنا لله، قد طمع فيّ أهل الكفر! وفي هذا الزمان حصلت أشياء من هذا القبيل، والله المستعان.

قال الحافظ: ودل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولا سيّما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولا سيّما بعد الاستدعاء والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولا سيّما والذي استدعاه قريبه ونسيبه، ومع ذلك فغلب عليه دينه وقوي عنده

يقينه، ورجح ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم حباً في الله ورسوله، كما قال: «**وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**» وعند ابن عائذ؛ أنه شكا حاله إلى رسول الله، وقال: ما زال إعراضك عني حتى رغب في أهل الشرك**!**.

قلت: وفي صنيع كعب الحاسم؛ القضاء على الفتنة في مهدها قبل استفحالها، وهذا مسلك مهم، فالفتن قد تبدأ هشّة ضعيفة فإن استؤصلت واجتثت في البدء وإلا عظُمت واشتدت؛ كالنبتة الصغيرة الضارة، فأول ما تنبت تكون سهلة المنال، قريبة المأخذ، هيّنة الاجتثاث، ولكن مع الوقت تتعاظم حتى تكون كالدوحة العظيمة التي يشق اجتثاثها، والقلوب مع الفتن أمرها أشد وأخفى وأشق، ومن أمثلة شؤم التغافل عن الشر قبل تمكنه قصة حيي بن أخطب النضيري مع كعب بن أسد زعيم بني قريظة، ومُلَخَّصُها أنَّ عدو الله حيي بن أخطب النضيري خرج حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة، وكان قد وادع رسول الله على قومه، وعاهده على ذلك، فلما سمع كعب صوت ابن أخطب

أغلق دونه حصنه. فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه: يا كعب! افتح لي. فقال: ويحك يا حيي إنك رجل مشئوم، إني قد عاهدت محمداً ولست بناقض ما بيني و بينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً. قال: ويحك افتح لي حتى أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: إن أغلقت دوني إلا على جشيشة تكره أن آكل منها معك ـ ولكل نفس باب ضعف يفطن له أعداؤه له، فإن احتاط وأغلقه وإلا افترسوه ــ فأحفظ الرجل ــ أي غضب، وهذا ما أراده الماكر حُيي ــ ففتح له فقال: ويحك يا كعب! جئتك بعزّ الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على سادتها وقادتها، قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه. فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر، بجهام قد أهراق ماءه، يرعد ويبرق وليس فيه شيء، فدعني ومحمداً وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء. فلم يزل حيي بكعب يفتل منه في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً؛ أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض الخبيث عهده، وبرئ

مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ، فكانت نهايته وقومه دقّ أعناقهم وسبي ذراريهم!).

«حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنْ الْخَمْسِينَ؛ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا؟ أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ اعْتَزِلْهَا، وَلَا تَقْرَبْهَا. وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بن أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ هِلَالَ بن أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ. قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ فِي امْرَأَتِكَ، كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بن أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ».

(قال الحافظ ابن حجر: وفيها عظم أمر المعصية، وقد نبه الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه

قال: يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حراماً ولا سفكوا دماً حراماً، ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟! وقال الحافظ: وفيها أن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين، وجواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه، وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره؛ تحذيراً ونصيحة لغيره، وجواز مدح المرء بما فيه من الخير إذا أمن الفتنة وتسلية نفسه بما لم يحصل له بما وقع لنظيره، وفيها ترك السلام على من أذنب، وجواز هجره أكثر من ثلاث. وأما النهي عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعياً، وفيها سقوط رد السلام على المهجور عمن سلم عليه إذ لو كان واجباً لم يقل كعب: هل حرك شفتيه برد السلام؟ وقد ذكر الإمام النووي فوائد نفيسة في المنهاج).

قال كعب: «فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ عَنْ كَلَامِنَا». (وعَدُّ كعب لليالي والأيام ناشئ عن أمرين والله أعلم؛ ثقته بفرج الله، وَأَلَـمُ كربته وغمّه ووحشته) «فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ

خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ؛ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ؛ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بن مَالِكٍ! أَبْشِرْ» (فما أعظمها من لحظة، وما أبهاها من ساعة، وما أجملها من صورة!) «قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ» (كما قيل:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر

وما أبرد بلسم وأجمل بشارة: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة». وقد يكون الفرج بانعتاق الروح من ضيق الدنيا لسعة الآخرة ومن طينة السمراء إلى علياء الجنان، مع نصر مبدئه، حتى بعد رحيله، كما رحلت شهيدة الإسلام الأولى سميّة في ركب كثيف من أهل الإسلام. وبالجملة؛ فأقرب ما يكونُ المرُء من فرج إذا يئِسا، أي من الخلق، كما قال الأول: كن مع الخالق بلا خَلْقٍ، ومع الخلْق بلا نفْسٍ.

يا صاحب الهم لا تنزعج ... فعما قليل يكون الفرج
فما في سديم الدُّنا من ظلام ... إلا ومنه يكون البَلَج

كما قيل: إذا ضاق الأمر اتسع، وإذا اشتد الحبل انقطع، وإذا اشتدا الظلام بدا الفجر وسطع. سنُة ماضية، وحِكمة قاضية. يا من بكى من ألمه ومرضه وكدّه، يا من بالغت الشدائد في ردّه وصده، عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده.

دعِ المقادير تجري في أعِنتها ... ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين غمضةِ عين وانتباهتِها ... يُغيرُ الله من حالٍ إلى حال

يا منّ هدّهُ الهم وأضناه، وأقلقه الكرب وأشقاه، وزلزله الخطب وأبكاه، أنسيت: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

إذا اشتملت على اليأسِ القُلُوبُ ... وضاق بما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكارهُ واطمأنت ... وأرست في أماكِنِها الخُطُوبُ
ولم ترَ لانكشافِ الضر نفعاً ... وما أجدى بحيلتِهِ الأريبُ
اتاك على قُنُوطِ منك غوثٌ ... يمُن به اللطيفُ المُستجِيبُ
وكل الحادثاتِ وإن تناهت ... فموصُولٌ بها فرجٌ قريبُ

بشّر الليل بصبح صادق يطارده على رؤوس الجبال، وبشّر القحط بماء زُلال يلاحقه في أعماق الرمال، وبشر الفقير بمال

يُزيل عنه الإملاق والإمحال ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١].

فارحل بقلبك إذا الهم برك، واشرح صدرك عند ضيق المعترك، ولا تأسف على ما مضى ومن هلك، وعسى أن تكون الشدة أرفق بك، والمصيبة خير لك.

افتح عينيك، ارفع يديك، لا تساعد الهم عليك، ولا تدع اليأس إليك.

وأجلَّ من هذا قول رب العزة والجلال والجمال: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٧]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦] ففي الآية الكريمة ذكر العسر معرفة، واليسر نكرة، وفي ذلك معنىً نفيس، قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي إن مع ذلك اليسر يسراً آخر، كقوله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:٥٢] وعند أحمد بسند حسن أن رسول الله قال: «**ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِه**».

كم كربة أقسمت ألا تنقضي زالت وفرجها الجليل الواحد

وفي تغليق التعليق وحسّنه: كتب عمر إلى أبي عبيدة يقول: «مهما ينزل بامرئ من شدة؛ يجعل الله له بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين» ومن وثق بربه، وأحسن الظنّ به، وأيقن بقدره لم يبال بما أصابه، كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصبحت والسرّاء والضرّاء مطيّتان على بابي لا أبالي على أيهما ركبت» وهذا من ثمرة تأمله حديث إمام الصابرين والشاكرين: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيراً له**» رواه مسلم في الصحيح. وكما قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «عند المصائب؛ الجزع محرّم، والصبر واجب، والرضى بالمقضي مستحب، والشكر عند المصيبة مرتبة الصديقين» بمعناه).

قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سياق ذكر قصته: «وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ» (إذ قد نزلت آية توبة الله عليهم مع السحر، فما أروع السحر، وكم لأولياء الله

فيه من ألطافٍ وهِباتٍ لا توصف جلالاً وهيبة، وشؤون لا تُنعت جمالاً وروعة، اللّهم لا تحرمنا فضلك بسوء أعمالنا، وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى على لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨] قال: أخرهم إلى السّحر. ويكفي في ذلك حديث النزول الإلهي إلى سماء الدنيا، فما أكثر تقصيرنا! وما أخيب همتنا والله المستعان! قال أحد العُبّاد: إنّما ترد الفوائد آخر الليل، وفي رواية في الفتح: فأنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني معتنية بأمري فقال: يا أم سلمة تيب على كعب. قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال: إذاً يحطمكم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليلة. حتى إذا صلى الفجر آذن بتوبة الله علينا).

قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ» (فالمؤمنون كالجسد الواحد، يفرح أحدهم بفضل الله على أخيه، فهاهم أصحاب الصدق يتسابقون في إدخال السرور

على أخيهم في الدين، وهل أعظم من تلك البشرى؟!) «فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي؛ نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ» (وفيه استحباب إعطاء البشير، كسوة أو غيرها مما يفرحه ويدخل السرور على قلبه نظير بشارته، وفي هذا ملحظ دقيق في التوحيد وهو الاستغناء عن منن الخلق إلى الخالق وحده، وفي الفتح: وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه. يعني؛ لما كان فيه من الجهد، فقد قيل: إنه امتنع من الطعام حتى كان يواصل الأيام صائماً ولا يفتر من البكاء) قال كعب: «وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ» (وتأمل رقة الحال، وقلّة المال) «فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ» (وفيه استحباب التهنئة عند تجدد النعم للمؤمن أو اندفاع النقم) «قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ. فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بن عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ (وتأمل في وقت ذكره لهذا

الموقف بعد مضي عشرات السنين، مع ذلك لم ينس لطلحة موقفه النبيل، فما أجمل أخوّة الأول ووفاء الثاني).

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ (لصدقه وجماله ومحبته وشفقته): أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» (قال الحافظ: استشكل هذا الإطلاق بيوم إسلامه، فإنه مرّ عليه بعد أن ولدته أمه وهو خير أيامه، فقيل: هو مستثنى، تقديراً وإن لم ينطق به لعدم خفائه، والأحسن في الجواب؛ أن يوم توبته مكمل ليوم إسلامه، فيوم إسلامه بداية سعادته، ويوم توبته مكمل لها، فهو خير جميع أيامه، وإن كان يوم إسلامه خيرها فيوم توبته المضاف إلى إسلامه خير من يوم إسلامه المجرد عنها).

«قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (فأعظِم بها من بشارة!) وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ» (وفي الكبرى للبيهقي والحلية لأبي نعيم بسند فيه مقال عن أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان

رسول الله يخصف نعله، وكنت أغزل، قالت: فنظرت إلى رسول الله ، فجعل جبينه يعرق، وجعل عرقه يتولد نوراً، قالت: فبُهتُّ، فنظر إلي رسول الله ، وقال: «**مالك بُهِتِّ يا عائشة؟**» قالت: يا رسول الله، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق، وجعل عرقك يتولد نوراً، فلو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، فقال: «**وماذا يقول أبو كبير الهذلي يا عائشة؟**» قالت: يقول:

فإذا نظرت إلى أسرّة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قالت: فوضع رسول الله ما كان في يده وقام إلي، فقبّل ما بين عينيّ، وقال: «**جزاك الله خيراً يا عائشة، ما سررت مني كسروري منك**»).

قال كعب: «فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» (وفي هذا لفته تربوية وهي أن على المحبّ الناصح أن لا يقبل عطاء أخيه في حالة شدة فرحه أو حزنه أو غضبه، حتى لو كان في

وجوه الخير، لأن النفس يعتريها ما يعتريها حالها ذاك، وفيه أنّ إبقاء بعض المال في اليد لا ينافي صدق التوكل واليقين والسخاء، وفي رواية أبي داود عن كعب أنه قال: إن من توبتي أن أخرج من مالي كله إلى الله ورسوله صدقة. قال: لا، قلت: نصفه. قال: لا، قلت: فثلثه. قال: نعم. ويشبهها حديث سعد في صدقته).

«قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ» (وتأمّل أدبه مع ربه حيث نسب التوفيق للصدق إليه وهذا من بركات تحقيق التوحيد) «وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩] فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ

مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦] قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ (أي: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية) عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ»، (وفي هذا لفتة هامة وهي أن العبرة بالحقائق والمخابر، لا المباني والمظاهر، ففي ظاهر حال الذين استغفر لهم أنهم خير ممن ترك الاستغفار لهم، حتى نزلت آيات توبة الله عليهم وفضح أولئك، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**». رواه مسلم).

قال كعب: «فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ

﴿خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨] وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنْ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ» متفق عليه. (قال ابن جرير الطبري: فمعنى الكلام لقد تاب الله على الذين أخرت توبتهم).

وهذا أوان الختام، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين.

إبراهيم الدميجي

٢/ ٣/ ١٤٣٣

aldumaiji@gmail.com

@aldumaiji